

المباني المرتفعة

د. حازم محمد ابراهيم

(١)  
يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لاتقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان " ، كما يبين الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث عن علامات الساعة " ٠٠٠ وان ترى الحفاة العراة العالة يتطاولون في البنيان ٠٠٠ " وهكذا فـسـنـان الاحاديث الشريفة ربطت بين التطاول في البنيان وقيام الساعة . وفى هذا دعوة للتأمل ووقفه للبحث عن ماهى العلاقة بين التطاول في البنيان وهو الشئ الجامد الذى لا يضر ولا ينفع بذاته وبين قيام الساعة وهى امر عظيم من شدتها احتفظ الله عز وجل بعلمها لذاته العلية حيث يقول سبحانه وتعالى : " ان اللـه عنده علم الساعة ٠٠٠ " (٣) وطالما ان الحديث الشريف ربط بين قيام الساعة والتطاول في البنيان فان هذا يعنى وجود علاقة وثيقة والعلاقة هنا ليست فقط علاقة "علامة" ولكنها علاقة "سبب" بمعنى ان التطاول في البنيان ليس علامة على قرب الساعة فحسب ولكن ما يترتب على التطاول من اضرار ومفاسد هو من ضمن الاسباب التى تعجل بها .

وطالما ان البنيان فى ذاته جماد لا يضر ولا ينفع ومسخر لخدمة الانسيان ، فاذن لابد ان تكون العلاقة هى العلاقة بين تصرفات الانسان وقيام الساعة اى بين الممارسات الاجتماعية التى تؤدى الى التطاول في البنيان من ناحية والتحولات الاجتماعية التى يحدثها التطاول في البنيان من ناحية اخرى وارتباط كل من الممارسات والتحولات الاجتماعية بالفساد أو بالضرر الذى عندما يعم يكون بمثابة عامل من عوامل التعجيل بالساعة ، ويتفق مع هذا المدخل قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما كتب الى الامصار " لاتطيلوا بناءكم فانه شر ايامكم " . ومن هذا المنهج يتم تناول الموضوع .

وفيما يتعلق بالممارسات الاجتماعية التى تؤدى الى التطاول في البنيان ، فان التطاول في البنيان برفع المباني الى أكبر عدد ممكن من الادوار قد يكون بسبب الرغبة فى تحقيق أكبر عائد مالى ممكن . وبالتالي يكون زيادة عدد الادوار الى

اقصى حد ~~الممكن~~ هو بمشابهة زيادة العائد المالى الى أكبر قدر ممكن ، وبالتالي يتم استغلال الارض التى يتم عليها البناء اقصى استغلال . ويتم الجنوح الى هذا الاتجاه اذا ماكانت أسعار الاراضى مرتفعة نتيجة ندرة الارض أو المضاربة عليها ممسنا يودى الى ارتفاع ثمن الارض الى قدر أكبر من قيمتها الفعلية ويدفع ذلك المالك الى محاولة استغلال الارض اقصى استغلال . ومن ناحية اخرى قد يكون الدافع الذى التطاول فى البنين هو رغبة المالك فى تحقيق اقصى عائد ممكن مستغلا فى ذلك حاجة الناس الى المبنى سواء للسكن أو للعمل خصوصا فى ظل ازمة الاسكان والترايسسند السكانى . من هذا نجد ان سيطرة رأس المال وسيطرة الفكر الاستغلالي مع وجود ازمتات هى التى تدفع الى التطاول فى البنين ، وبالطبع فانه فى ظل سيطرة رأس المال والفكر الاستغلالي ومع وجود الازمات تضع العلاقات الانسانية وصلة المودة والتراحم بين الناس ويكون المعيار الوحيد فى العلاقات هو المال والرغبة فى تحقيق أكبر عائد مهما كانت الوسيلة أو الطريقة ، وسواء كانت مشروعة أو غير مشروعة ، انسانية أو غير انسانية . وهنا يحل الصراع محل الوشام والتباغض محل المحببة وتضع روح الجماعة ويحل محلها روح الانانية والحقد الطبقي وبهذا تكون النظرة الاستغلالية الاقتصادية هى الدافعة الى التطاول فى البنين وهى أيضا السبب فى التحلل الاجتماعى .

ومن ناحية اخرى ، قد تكون الرغبة فى التظاهر وابران القوة والثروة والغنى من أسباب التطاول فى البنين ، فتبنى المباني لكى تكون منبرا للتظاهر والتفاخر والتكبر ، والتعالى على الاخرين ، خصوصا اذا كان الغنى بعد فقر كملسا اوضح الحديث الشريف ، ويكون فى ذلك بتر للنعمة ، وبالتالي تدب بذرة الخلل فتضع روح التجانس الاجتماعى والاحساس بالجوار وحق الجار ، وتدب روح الصراع الطبقي ، صراع الطبقة الغنية مع الطبقة الفقيرة وصراع القادر مع غير القادر ، ويهدب الخسد والتباغض وهنا يكون الشقاق الاجتماعى الذى يودى الى ضياع روح التآلف والجماعة فى المجتمع ، وبذلك يكون التطاول فى البنين مرة اخرى سببا فى التحلل الاجتماعى . فاذنا أضفنا الى ذلك دور سيطرة رأس المال الذى يمكن أن ينشط مسألة الصراع ويدفع دفعا الى الاسواق بمزيد من مواد البناء وفنون وتقنية متطورة مع الرغبة فى الدعاية وابران قوة المؤسسة الاقتصادية أو الشركات أو البنوك او الافراد بحيث يبنى كل منشأ بشكل وحجم وارتفاع أكبر حتى يظهر ويفرض نفسه على الصورة العامة للمدينة ويحقق غرض الدعاية وابران القوة . ولعل مدينة نيويورك بما فيها من ناطحات للسحاب بشكل متجاور ومتنافس لأبرز مثال على تفشى روح الصراع المادى وسيطرة رأس المال والمادة وغياب العلاقات الانسانية والتواد والتراحم ، وذلك مما يودى الى تفشى العديد من الامراض الاجتماعية كالتفكك الاسرى والجريمة ...

وفيمما يتعلق بدور التطاول فى البنيان فى احدات تحولات اجتماعية مرضية يبرز على السطح العلاقة الوثيقة بين التطاول فى البنيان وارتفاع الكشافات السكانية . فارتفاع الكشافة السكانية يعنى تزايد التزاحم السكانى فوق قطعة الارض التى يعيشون عليها . والتزاحم الشديد يبرز ضررة فى فساد العلاقات الاجتماعية ، وكلما زاد تزاحم الافراد كلما أدى ذلك الى انتشار الامراض العضوية والنفسية والاجتماعية ، فمع زيادة التزاحم يكون المناخ مهيباً لانتشار الامراض الوبائية كالكوليرا والتيفود والامراض الصدرية وكذلك يزيد من معدل وفيتات الاطفال الرضع . ومع تزايد التزاحم ترتفع حدة التوتر العصبى ويزيد انفصال الانسان والاضطرابات العصبية والنفسية وتكثر المشاكل والمشاجرات والخلافات بين السكان . وكذلك فمع تزايد التزاحم تنتشر الامراض الاجتماعية مثل انحراف الاحداث والشباب وانتشار الجريمة والرذيلة والمخدرات .. ومع تزايد التزاحم يضع احساس الانسان بجاره نيل ويعتبر منافسا ومشاركاً فى الحيز الضيق وبالتالي تسود روح الصراع بين الجيران ويضع حق الجار والاحساس بالالفية مع الجار والود الاجتماعى والسلام ، وضياح حق الجار يمثل ضياحا لواحدة من أهم التعاليم الاسلامية حيث يقول الله عز وجل :

، كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

" مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " .

وفى ظل التزاحم الشديد ، يضع احساس السلام داخل الوحدة السكنية وتضع روح "السكنية" التى ارادها الله عز وجل للانسان فى بيته حيث يقول الله عز وجل : " والله جعل لكم من بيوتكم سكناً " (٣) ولاتتأتى السكنية فى ظل التزاحم ومايوأكبه من ضواح ومشاكل وامراض وبالتالي يصبح المسكن محلاً للطرد وليس مكاناً لجمع شمل الاسرة وزيادة احساس بالالفية والتواد والتراحم بين افراد الاسرة الواحدة . وبالتالي يحدث التفكك والتحلل الاجتماعى على كل من مستوى الاسرة ومستوى المجتمع .

ولعل من أبرز أضرار السكن فى المباني المرتفعة مشكلة انعزال الانسان عن المجتمع . ويتولد هذا احساس بالانعزال مع الطفل الذى يعيش فى الادوار العلوية من المبنى حيث لا يستطيع ان يمارس حياته واكتساب الخبرة فى التعامل مع الاخرين والاحتكاك بهم وكذلك فى احساس بالطبيعة وجمال الطبيعة التى هى جمال الحياة ذاتها ، ومن هنا يتولد احساس بتباعد الانسان عن الطبيعة وعن الاخرين خلال نموه الغير سوى خصوصاً مع مخاوف الاهل على الطفل من الاقتراب من النوافذ والابواب والبلكونات خوفاً عليه من السقوط أو الخطر . وبالتالي يتولد مع الانسان احساس اما بالانطواء واما بالميل العدوانية تجاه الاخرين الذين لديهم ظروف معيشية أفضل .

مما سبق ، نجد ان التطاول فى البنين يعكس صورة واقع اجتماعى قائم وتحول اجتماعى حادث ، وان كل من الواقع والتحول يعكس امراضا اجتماعية وصراع طبقي واجتماعى ومادى بين مجتمع السكان ويعكس المشاكل والقلق والامراض الاجتماعية وبالتالي يضيع فى ظل سيادة تطاول البنين السلام الاجتماعى بين الافراد، وبهذا يظهر السبب فى النهى عن التطاول فى البنين ، كما يظهر الربط بين التطاول فى البنين وقيام الساعة كما ورد فى الحديث الشريف.